«قصاقيص ورق» بقلم صلاح جاهين . الكتاب الذهبي ، القاهرة ، ١٩٦٦
«علي محمود طه الشاعر والانسان» بقلم انور المعداوي. وزارة الثقافة، بغداد، ١٩٦٥

في الوقت الذي تكاد فيه معركة العامية والفصحى ان تدخل موسمها الجديد (فالحق ان لها مواسم دورية يزدهر فيها الاخذ والرد ، ثم تحفظ القضية في الاحوال العادية للجو ، وتقيد ضد مجهول اذا تكاثف الضباب في المناخ الادبي) ، في هذا الوقت تصدر المجموعة الشعرية الجديدة لصلاح جاهين .

وقد بدأ موسم العامية والفصحى هذا العام ، بالخطاب الذي القاه عزيز اباظة في عيد العلم. وبالرغم من ان الصحافة اليومية والاسبوعية والاذاعة والتلفزيون قد اهتمت جميعها بهذه البداية المثيرة للموسم ، الا ان صدور المجموعة الشعرية الجديدة لصلاح جاهين « قصاقيص ورق » هو الاعلان الشرعي لبدء المباراة في العام الجديد .

فصلاح جاهين في مجموعته الجديدة يطرح العديد من القضايا والتساؤلات التي تتجاوز الشكل التقليدي لمعركة الفصحى والعامية . اهم هذه القضايا ، ان اللغة في ذاتها لا تجعل من النص الادبي فنا تقدميا او محافظا . كذلك فالالتزام الخليلي للعروض ، او التمرد عليه ، ليس هو لب المشكلة الرئيسية التي تواجه الشعر العربي الحديث .

« قصاقيص ورق » في كثير من القصائد تقترب من الفصحى اقترابا شديدا ، كما نلاحظ مثلا في قصيدة « النيل » :

« النيل
العملاق الجميل
فايت على البلدان
نشوان
ويميل
ينعس تحت النخيل »

ولقد يبدو هذا المقطع بالذات من اردأ مقاطع القصيدة، ولكنه يشير في وضوح الى تلك «الموجة» الهادرة في شعر صلاح جاهين ، حيث تقترب لغته من التركيب الفصيح والوزن الصارم ، ولا يبقى بينه وبين الشعر التقليدي سوى استخدام الشاعر للتفعيلة الواحدة . هل معنى ذلك ان جاهين يتخلف بشعره نحو اشكال تقليدية مهترئة ؟

في كثير من القصائد تتزامل اكثر اللهجات المصرية شذوذا واستثناء ، كما نلاحظ في « تراجيديا صاحب العمارة » او « غنوة برمهات » او « نجية » التي يقول فيها :

« من صغر سني
غاوي ملاغية
وغصب عني بتقول عينيا
عاشق يا ليل »

ولكنها في الحالين تمزج بين اللفظة والشحنة الفكرية او العاطفية التي تجسدها ، بصورة لا تبقى معها اللغة مجموعة من الحروف الميتة، وانما تصبح رموزا متآلفة تصوغ فيما بينها ذلك الحلم الذي يستطيع الشاعر وحده ان يشركنا في التحليق مع موجاته الاثيرية .

كذلك فان صلاح جاهين يلتزم حينا بالشكل التقليدي ، فيكتب رباعيات طويلة في بحر واحد يربط بين كل مقطع وآخر قافية واحدة ، وربما يتوحد بينها حرف الروي بصورة شديدة الصرامة والمحافظة :

« سألت عن بختي ، قالوا النجم له احكام
نجمك في يوم يرفعك ، ويضعضعك ايام
ان مال يمين تتنصف وان مال شمال تنضف
وان راق تروق دنيتك ويا داهيتك لو ...

الى بقية ابيات قصيدة « موال لرواد الفضاء » ، وحينا آخر يتحرر من كافة قيود العمود والقافية ويتعمد ذلك تعمدا كما نلاحظ في قصائده الثلاث « روحانية » و « يا سلام يا دكتور » و « فنان » ومع هذا لا نفرق بين شعره الملتزم بالعروض

...ره المتحرر منه، لان شيئا ما اكبر من العروض ...ر من اللغة هو الذي يجعل من هذا الشعر شعرا ...ة قريبة من مادة الحلم. وهي المادة التي استلهمها ...التراث الشعبي دون ان يعتمد على الخامة الموضوعة ...هذا التراث . اي ان صلاح جاهين قد اعتمد على ...ح التراث دون اللجوء الى هيكله العظمي من ...اطير والحكايات والحواديت . ولذلك فنحن لا ...د في « قصاقيص ورق » على مادة تراثية محددة، ...جم من شيوع استخدام هذه المادة بين زملائه من ...باء العامية المعاصرين . وهي المادة التي تيسر لهم ...لية الصياغة الى حد كبير ، تماما كما هو الحال عند ...تاب المسرح التاريخي او الرواية التاريخية . فان ...ما يقومون به هو اضفاء الروح المعاصرة على ...لمة القديمة المعدة سلفا . اما صلاح جاهين فيكاد ...نع شيئا عكسيا على طول الخط ، فهو يستلهم ...وح التراثية ، كما قلت ، ليقولبها بعد ذلك في ...ر حديثة او قديمة كما يشاء . فنحن نستطيع ان ...مي عددا لا بأس به من القصائد « الثورية » — ...ل « رسالة الى جندي » و« اول مايو » و« ثوار » ...« المسؤولية » وغيرها من القصائد الملتهبة بحمة ...طن والثورة . كما نستطيع ان نحصي عددا ...ن من القصائد العاطفية، وعددا مماثلا من قصائد ...يف. وهكذا يكاد شعر هذه المجموعة ان يذكرنا ...عر القديم حين كان في معظمه شعر «مناسبات» ...المدح والهجاء والفخر . خاصة وان ملامح ...مة الثانية للشاعر — وهي الرسم الكاريكاتوري ...تك بصماتها على انتاجه الشعري . اي ان نغمة ...خرية والمبالغة من الالحان الرئيسية التي يعزفها ...صلاح جاهين . الا ان « شيئا ما » في هذا ...ء يرتفع بالمناسبة الشخصية الى مستوى الرمز ...ي ، ويتحول بالمناسبة العامة الى آفاق انسانية ...طف معها الوجدان الخاص للفرد .

...هذا الشيء هو ما ادعوه بروح التراث دون ...تقيد الروح الشعبية التي تتبدى في الرصيد اللفظي ...وسيقي للموال ، فلا شك ان صلاح جاهين يرصف ...اته واوزانه وفق الانسجام الصوتي بينها وبين ...وع الذي يتناوله، وهو غالبا مايكون موضوعا ...يئا ومعاصرا . ولكنه يستوحي من الكلمات ...تها الروحية الموروثة ، كما يستلهم من الابنية الموسيقية علاقاتها الداخلية التي كونتها تجارب لا حصر لها في تاريخنا الطويل. لذلك تتجاور الفصحى، مع العامية دون ما خلل ، ويتجاور العمود الخليلي مع التفعيلة الواحدة دون ما نشاز، لان «شيئا ما»، كما قلت ، يعلو كثيرا فوق القواعد الموضوعية المقررة والمسبقة ، يخلق في شعر صلاح جاهين ذلك المزيج المركب في صفاء .

في قصائد مثل « المرافعة » و « المقابر » و « قصيدة » يتضح هذا العنصر السحري الذي يجعل من معركة الفصحى والعامية قضية بائرة ، ومن معركة الشعر التقليدي والشعر الجديد مؤامرة رخيصة ـ هذا العنصر الذي يدعوه البسطاء باسم « الصدق » والنقاد باسم « الرؤيا الفنية » . والحق ان الرؤيا الشخصية للفنان هي معيار الصدق ، فكلاهما يرادف الآخر ما دام المقصود ان نضع ايدينا على جوهر التجربة الانسانية التي ينفذ اليها الفنان ببصيرة اكثر شفافية من بصائرنا التي اتخمها العادي والمألوف . فالتجربة الشعرية الاصيلة هي تلك اللحظات النادرة التي يتم فيها اللقاء الفذ بين الفنان وصدق البصيرة . وهي اللحظات التي نعيشها بكل ما لدينا من حرارة وانفعال بين احضان المجموعة الشعرية الجديدة لصلاح جاهين .

ان اقل مكاسبنا من « قصاقيص ورق » انها تضع الموسم الجديد للمعارك الادبية امام مستوى موضوعي رفيع للمناقشة .

منذ حوالي عشرين عاما بدأ الناقد الراحل انور المعداوي يسلط الاضواء على الشاعر المصري علي محمود طه ، كفنان مزدوج الدلالة : فهو الشاعر الرومنطيقي النموذج، وهو الشاعر الواقعي الملتزم. وقد كان علي طه مهندسا في حياته العملية ، اي انه كان يمارس ذلك اللون من الحياة الذي يقع عند الطرف الاقصى من نقيض الحياة الفنية بشكل عام، والحياة « الشاعرية » بشكل خاص .

وقد كان انور المعداوي في ذلك الوقت ناقدا ناشئا على صفحات « الرسالة » ، ولكنه كان ناقدا جهير الصوت ، يفرض احترامه على الجميع بذوقه المرهف وضميره الحي دون ان يستعرض اية عضلات ثقافية. اما علي محمود طه فقد كان شاعرا مخضرما،

عرفته الصحف والمجلات قبل ظهور المعداوي باكثر من عشر سنوات . ولكنه لم يحظَ بالتفات النقد كما حظي به على صفحات « الرسالة » ، بقلم هذا الناقد « المشاغب » رغم صغر سنه . اذ لاحظ انور المعداوي انه يتساءل فيما بينه وبين نفسه : لماذا اندفع ادبنا بالامس القريب – الربع الاول من القرن العشرين – نحو الرومانسية ؟ ويجيب بان محنة المثقفين في ذلك الزمن كانت محنة الوطن المقهور تحت ضغط القوى التي لا قبل لهم بمقاومتها والوقوف في وجهها . كانت هناك – يقول المعداوي – قوى الرجعية والاستعمار والاقطاع وطغيان الملكية وحكم الاقليات، فقد « انتكست في مصر كل الانتفاضات القومية وعلى رأسها ثورة ١٩١٩ » .

ثم يبدأ انور المعداوي في كتابه حول علي محمود طه ، مفصلا التكوين الذاتي لشخصية الشاعر حيث كان في اوائل حياته « شخصية انطوائية » وقرب نهايتها « شخصية انطلاقية ». ولعل هذه الاشارة الى ذاتية الشاعر تؤكد لنا الوجه الموضوعي لشعره ، اي انها تفسر لنا الى اي حد تأثر هذا الشعر في مرحلته الرومنطيقية بانطوائية الشاعر على همومه الشخصية ، وفي مرحلته الواقعية الملتزمة بانطلاقه الى آفاق القضايا العامة التي تشغل وطنه. وقد ادى اكتشاف انور المعداوي لهاتين المرحلتين في حياة علي محمود طه الشعرية والانسانية على السواء ، الى ان يكتشف بالتالي معنى «التطور» في حياة الفنان ، ومعنى الالتزام في الفن .

لهذا جاءت معايشته لشعر علي طه واتصاله الشخصي الحميم بالشاعر تأكيدا لهذه النتيجة التي خرج بها ، وهي ان الظروف الذاتية للفنان تتفاعل مع ظروفه الموضوعية على نحو غاية في التعقيد . غير ان الظرف الموضوعي هو العامل الاساسي والموجه لحركة التفاعل هذه . ومن ثم يصبح المناخ الاجتماعي الذي يتنفسه الفنان هو الاب الشرعي لتطور فنه. هكذا يفسر لنا انور المعداوي انبثاق حركة الادب الواقعي في مصر بانفجار الوعي الوطني واشتعال الثورة .

الا ان الظروف الاجتماعية لا تؤدي عملها بمعزل عن الارادة الانسانية الفاعلة ، الارادة الحرة . لذلك على الفنان ، لكي يكون واقعيا ملتزما ، ان يعيش تجربة عصره ، كما يقول انور المعداوي – مستطردا ان تجربة عصرنا على النطاق العربي هي تجربة الحرية ، « حرية الانسان العربي في اختيار كل مستويات الحياة التي ينبغي ان يحياها بارادته : مستوى التفكير والتعبير والسلوك والعقيدة، وبلوغ حد من ضمان العيش يليق في عصر الشعوب بكرامة البشر » .

وقد كان لاكتشاف المعداوي لمرحلتي الشاعر علي محمود طه ، اثره الفعال في تكوين منهجه النقدي . فالعنصر الاول في هذا المنهج يعتمد على الحس الذوقي المرهف، ذلك الذي دعاه يوما بالاداء النفسي . وهي الفكرة القائلة بان الفن في جوهره ليس فهما للحياة يقف بنا عند حد الرؤية المادية والاثارة العقلية ، حين تقوم هذه من تلك مقام النتيجة من المقدمة او مقام النهاية من البداية. وانما هو ، الى جانب هذا ، حركة في الوجود الخارجي تعقبها هزة في الوجود الداخلي ، يتبعها انفعال هو انفعال يحدث تلك المشاركة الوجدانية بين منتج الفن وبين متذوق الفن ، نتيجة لذلك التجاوب الشعوري بين الفنان والمتلقي .

والعنصر الآخر في هذا المنهج استخلصه انور المعداوي من ان علي محمود طه قد عاش تجربة عصره ، تجربة الجموع العربية المكافحة في سبيل هدف واحد رئيسي ، هو التخلص من المستعمر لتتخلص بعد ذلك من كل ما ينبثق عنه من الوان الاعاقة لحركة التطور .

ان كتاب « علي محمود طه الشاعر والانسان » الذي كتب انور المعداوي معظم فصوله منذ خمس عشر عاما او يزيد ثم اكمله قبل وفاته باشهر قلائل هو وثيقة نقدية عزيزة في تاريخنا الادبي الحديث لانه يؤرخ لاحدى المراحل الهامة في تطور نظرية الجمالية من التأثر الانطباعي المشحون بالعاطفة الذاتية ، الى المنهج العلمي الحديث .

عبد الحميد عباس